المحاضرة الخامسة: سؤال الانطلاق والإشكالية

1- سؤال الانطلاق:

إن أول مشكل يصادف الباحث هو كيفية البدء في عملية البحث، لأنه ليس من السهل ترجمة ما يختلج في الذهن (الاهتمام) إلى مشروع بحث إجرائي، وهذه الصعوبة قد تجعل الباحث يدور في حلقة مفرغة ولمدة طويلة، وترتبط هذه الصعوبة برغبة الباحث في بناء مشروع بحث جيد يستحق البحث والدراسة وهذا خطأ، إن مفهوم البحث هو البحث عن شيء مجهول من خلال تتابع منطقي للوصول إلى حقيقة علمية، ولذلك لابد من قبولها كما هي، ومهما يكن لا بد على الباحث من اختيار نقطة انطلاق مهما بدت له ساذجة وغير ناضجة، لأنه من الممكن تغيير الطرق وآفاق البحث في الخطوات اللاحقة، لأن نقطة الانطلاق مؤقتة، وهي جد ضرورية، حيث هي الخيط الموجه الأول لكل مراحل البحث المقبلة، وهذا ما يسمى بسؤال الانطلاق، فأحسن طريقة للباحث هي صياغة بحثه في شكل سؤال يترجم بدقة ويشرح فيه ما يريد دراسته وفق قواعد واضحة .

- خصائص سؤال الانطلاق:

- واضح ودقيق لا يحتمل التأويل.

- القابلية للتنفيذ: واقعيا ومن خلال الإمكانات المتاحة.

- الملائمة: يبحث في فهم شيء وليس الحكم عليه.

- **العمل الاستطلاعي: القراءات والمقابلات الاستكشافية.** يمثل سؤال الانطلاق دليلا للباحث في المراحل التالية، إذ يساعده في تجاوز خطوات كبيرة لاحقا وهي المطالعة، فهو الذي يسمح باختيار أحسن القراءات والدراسات الاستطلاعية، فكلما كان محددا بدقة كلما تقدم الباحث في القراءة بشكل أحسن، وكلما تمكن من إحداث قطيعة مع الأحكام والمعارف السابقة.

- **المطالعة:** ينبغي على الباحث تجاوز المعارف العامية، وعدم تكرار ما سبق من معارف سوسيولوجية، وهذا يقتضي منه التزود بمعارف نظرية. واستغلال النظريات، مما يفرض عليه التمرس والتدرب على البحث والقيام بالقراءات المعمقة، التي تسمح له باكتساب النماذج التحليلية أو المفاهيمية وفهم الاتجاهات الفكرية القريبة المتصلة بالموضوع. وتهدف هذه المطالعة إلى: الاستعلام عن الدراسات السابقة- تحديد المساهمة الجدية- اختيار الإطار النظري للدراسة.

الجولة الاستطلاعية: تظهر الجولة الاستطلاعية على أنها مكمل ومدعم للقراءات. إذ لا يوجد تدرج بينهما...فقد يكونان في الوقت نفسه، وتهدف الجولة الاستطلاعية إلى إيجاد السبل الفكرية لتدقيق مشكلة البحث وتساعد على تدقيق سؤال الانطلاق وضبطه، وتظهر أهمية الجولة الاستطلاعية لاسيما في الدراسات ذات الطابع الميداني في كونها تساعد في التعرف على ميدان البحث والتأقلم معه ومعرفة جوانبه المختلفة التي لا تظهرها قراءة الدراسات والأدبيات السابقة ذات الصلة بالموضوع البحث، أضف إلى ذلك أنها تسمح ببناء عناصر الإشكالية والفرضيات وسلوك السبيل الفكري المقبول والمعقول الذي لا يخطر على بال الباحث.

- المقابلات الاستكشافية:

ويقصد بها المقابلة التي تساعد في طرح الإشكالية وصياغة الفرضيات وليس التحقق من هذه الأخيرة...ومن ميزاتها أنها مكملة ومدعمة للقراءات ومرشدة لها...وتحقيق وفرة في الانفاقات غير المجدية على صعيد الطاقة والجهد بالنسبة للقراءات وبناء الفرضيات والمعاينات...ولها وظيفة أساسية وهي تبيان جوانب من الظاهرة

المدروسة ما كان للباحث أن يفكر فيها، والوصول بهذه الطريقة إلى تكملة مجالات العمل التي تكون قراءاته السابقة قد أظهرتها .

هدف الاستطلاع هو المساعدة على تكوين إشكالية بحث حقيقية، إذ تساعد القراءات على تحديد العناصر المعرفية والنظرية المتعلقة بسؤال الانطلاق وعلى الأنساق التحليلية التي وظفها علماء الاجتماع، بينما تساهم المقابلات الاستكشافية الجوانب الواجب أخذها بعين الاعتبار ومدى ملائمتها لموضوع البحث، وهي الجولة الأولى قبل توفير إمكانيات أكبر، والأهم لاختبار الفرضيات. ومن أهم التقنيات الأنسب للعمل الاستطلاعي هي **المقابلة الحرة والمرنة**، وهي تساعد الباحث على **إيجاد أفكار جديدة وربما فرضيات**، كما تفتح الذهن لاكتشاف طرق جديدة في **طرح أسئلة للموضوع**، وتزيل وهم الشفافية، وتبعد الباحث عن التأكيد السطحي للأحكام القيمية والأفكار المسبقة، ومن ثم تمكنه من إحداث القطيعة الابستمولوجية، ويتم استغلال المقابلات في إحداث القطيعة المعرفية وذلك بعد جمعها وتصنيفها لبناء فرضيات لكي نتجاوز الأحكام القيمية ونبني معارف علمية.

2- الإشكالية:

عليك أن تطرح على نفسك الأسئلة التالية: هل يعبر سؤالك الأولي وبصدق على ما اكتشفته في السؤال الاستطلاعي؟ هل ما زال يمتلك القدرة على توجيهك في المراحل المقبلة؟

أ- مفهوم مشكلة البحث (تذكير): تعني غموضا أو نقصا في المعطيات والمعلومات مما يتطلب إزالة هذا الغموض وسد النقص، كما قد تعبر عن تناقض في الحقائق في موضوع ما ينبغي إزالته، وقد تعبر عن غموض أسباب ظاهرة ما أو تداخل فيما بينها حيث يتطلب تحديدها، وقد تعني انفصال بين النظري والتطبيقي مما يتطلب التعامل معه وتحديده. **وهي:** " عبارة تستفسر عن العلاقة بين متغيرين أو أكثر توضح للآخرين أهمية موضوع البحث ومجاله ومحتواه ومصطلحاته..." .

ب- مفهوم الإشكالية: إن مدلول عبارة إشكالية لا يعني مشكلة البحث، وكلى العبارتين في مراحل المسعى المنهجي في البحث العلمي في علم الاجتماع تشير إلى مرحلتين متميزتين رغم وجود ترابط منطقي بينهما. إن المرحلة الاستكشافية التي يقوم بها الباحث والمكونة من مستويين متداخلين: استعراض الأدبيات والجولة الاستطلاعية، تسمح للباحث بجمع معطيات ومعلومات من شأنها تدقيق الإشكالية، من خلال إعطاء أو اقتراح سبل فكرية تساعد على توجيه هذه المشكلة وجهة مقبولة معرفيا ومنهجيا، وهنا نصل إلى الإشكالية بوصفها نوع من إعادة صياغة مشكلة البحث من منظور جديد قائم على إسهام المرحلة الاستكشافية . في هذه الحالة يمكن اعتبار الإشكالية هي المشكلة الخصوصية، وهي مرحلة ثانية هامة في طرح المشكلة. المرور من العام إلى الخصوصية نجده عند نيكول برتييه، حيث ترى أن الانطلاق الحقيقي في البحث يتمثل في تلك الكيفية وتلك المهارة التي يعرف من خلالها الباحث كيف ينتقل من العام إلى الخصوصي مع مشكلة البحث. وعليه " يكمن فن البحث في تحويل سؤال عام ننطلق منه إلى أسئلة بحث خصوصية واضحة ودقيقة وهذا ما يراه أيضا موريس انجرس الذي اعتبر الإشكالية فعل تدقيق مشكلة البحث. ولكن يبدو أن الأمر أعقد من ذلك. وحتى يتسنى فهم الإشكالية وكيف تهيكل يمكن العودة إلى تحديد أهميتها.

يرى مؤلفو كتاب مهنة علم الاجتماع أنه لا يمكن لموضوع البحث مهما كان جزئيا ومجزأ أن يبنى إلا بدلالة إشكالية نظرية تسمح بإخضاع جوانب من الواقع للتساؤل المنتظم، هذا التحديد يضعنا أمام فكرتين أساسيتين هما: الطابع النظري للإشكالية من جهة، ومن جهة أخرى المساءلة بجوانب الواقع. بمعنى آخر الإشكالية هي

مساءلة نظرية للواقع أو الظاهرة التي يريد الباحث دراستها. وهنا تتحقق القطيعة مع الخطاب العام والأحكام القيمية.

تبدو أهمية الإشكالية في إعطاء أرضية متينة للبحث لأنها تجنبه الانحراف والتيه في الأحكام القيمية والأفكار المسبقة والخطاب العامي، لأن الإشكالية تؤطر مشكلة البحث ببناء مفاهيمي والذي يعني أن البحث بدأ يصعد إلى صفة العلمية، لأنه يستند إلى بناء نظري لا غنى عنه في البحث العلمي. إذن الإشكالية هي الانتقال من المعطى أي مشكلة البحث (الاجتماعي) إلى المبنى السوسيولوجي على أساس مفاهيم عن طريق ما يعرف بالمسلك التجريدي. وبالتالي لها دور معرفي وآخر منهجي. يتمثل الأول في الانتقال من العامي إلى المبني على أساس نظري مفاهيمي، ويتحدد على الثاني الخطوات المنهجية اللاحقة لاسيما الفرضية. ويقدم البعض تعريفات للإشكالية بوصفها:

- فن وعلم طرح المشكلات.

- وتعني صياغة مشكلة البحث: تعريف المشكلة وتحديد معالمها ووضعها في مجراها الفكري، وتؤدي صياغة المشكلة إلى طرح تساؤل حول واقع نريد معرفته في إطار يسمح ببحثه امبريقيا، ومن ثم ينبغي تحديد المفاهيم والمصطلحات بشكل دقيق.

- وتعرف الإشكالية بأنها: المدخل النظري الذي يقرر الباحث تبنيه لمعالجة المشكلة التي طرحها في سؤال الانطلاق.

- وهي الصياغة العلمية الأكاديمية العامة للبحث والتي تقتضي إيجاد أسئلة للباحث.

- محتوى الإشكالية: لا توجد وصفة خاصة لمحتوى الإشكالية، إلا أن هناك أربعة أسئلة رئيسية- حددها موريس انجرس - هي بمثابة الموجه والمرشد للباحث في محتوى الإشكالية، هذه الأسئلة هي:

- لماذا نهتم بهذا الموضوع؟ أي ذكر أسباب أو مبررات الدراسة.

- ما الذي نطح لبلوغه؟أي الأهداف.

- ماذا نعرف لحد الآن؟ أي الأدبيات والدراسات السابقة.

- أي سؤال بحث سنطرح؟ أي طرح سؤال دقيق ومركز للبحث

إن مثل هذه الأسئلة باعتبارها محطات رئيسية في مسعى بناء الإشكالية، قد نجدها في هذه المرحلة أو تلك من مراحل البحث العلمي في علم الاجتماع، أي هي ليست حصرية في الإشكالية. ولكن أهميتها هنا تكمن في مساعدتها للباحث في تخطي العوائق الذاتية والموضوعية في مرحلة لا تزال تدرك على أنها أصعب مرحلة منهجية في البحث الاجتماعي. وعلى هذا الأساس يركز الباحث في محتوى البحث على إبراز التناول النظري الذي اختاره لمشكلة البحث ويكون ذلك من خلال تخصيص الخطاب أي جعله قائما على لغة المفاهيم.

- مراحلها:

أ- المرحلة الأولى: مرحلة ضبط وجهات النظر المختلفة حول الموضوع (تحديد المداخل المتنوعة، أي القيام بجرد وإحصاء وجهات النظر المختلفة، وتعيين نقاط الاتفاق والاختلاف، مع تحديد الإطار النظري الذي يستند إليه كل رأي).

ب- المرحلة الثانية: تدقيق الإشكالية: سواء بتصور إشكالية جديدة أو بوضع العمل ضمن إطار نظري تم اكتشافه من خلال القراءات السابقة.

ج- المرحلة الثالثة: تحديد طريقة الباحث الشخصية في كيفية عرضه للمشكلة والإجابة عليها. وفي هذه المرحلة يتم عرض المصطلحات والبناء المفاهيمي الذي تقوم عليه الاقتراحات التي تم وضعها للإجابة على سؤال الانطلاق.

وهناك من يحدد مراحلها الزمنية في:

أ- المرحلة الأولى: مرحلة الجرد الشامل: وهي المرحلة التي تشمل سؤال الانطلاق ومرحلتي القراءة والمقابلات الاستكشافية، وهي مرحلة حصر أهم نتائج القراءات والاستجوابات مما يسمح بتحديد الإطار العام وإعادة تدوين المعلومات والقراءات على أساس الإطار النظري أو النظرية التي تم تبنيها.

ب- المرحلة الثانية: مرحلة تكوين وتوضيح الإشكالية.

- ملاحظات:

- ينبغي على الباحث اختيار المدخل المنهجي والإطار النظري للدراسة الذي يساعده في تحديد المفاهيم والذي يزوده ببناء النموذج التفسيري لموضوع بحثه.
- تحديد الإطار النظري للبحث يجنب الباحث الخلط بين المداخل المنهجية المختلفة.
- يساعد تحديد الإطار النظري للباحث اختيار مفاهيم المدخل المتبنى ومقولاته وأنساقه المعرفية وأطره التفسيرية.
- ينبغي التدرج في عرض الإشكالية من العام إلى الخاص أو من الكل إلى الجزء.
- يمكن تدعيم الإشكالية بإحصاءات.
- يمكن الاعتماد على الأقوال والأفكار والشواهد.